رشيد بن مالك

المحاضرة السادسة في مادة السيميولوجيا

طلبة السنة الثالثة ليسانس

شعبة الأنثربولوجيا

السيميولوجيا والسيميائيات في النصوص المتخصصة المترجمة.

1.النصوص اللسانية المترجمة

ظهرت ترجمة مصطلحي sémiologie وsémiotique في النصوص الفردية أو الجماعية التي تصدت لترجمة كتاب دروس في اللسانيات العامة لفرديناند دي سوسير[123] حيث وضع يوئيل يوسف عزيز، في كتابه علم اللغة العام ، علم الإشارات مقابلا لـ sémiology [124]. وهذا الكتاب منقول إلى اللغة العربية من النسخة الإنجليزية التي لم يشر إليها المترجم. ويمكن أن نثير أسئلة حول اختيار النسخة المترجمة لكتاب الدروس، وتفضيل التعامل مع المصطلحات الإنجليزية بدلا من المصطلحات الفرنسية بداعي شيوعها بين المثقفين لا سيما في الوطن العربي[125]. إن الإشكال لا يطرح على هذا المستوى، فالمصطلحية في اللسانيات الأوروبية ممتوحة من مصدر واحد، التراث اليوناني-اللاتينى. ولهذا فإن الاختلافات بين الباحثين في ترجمة المصطلح داخل الألسن الأوروبية محدودة جدا؛ وهي آتية أساسا من تباين وجهات النظر حول استحداث مصطلح جديد لمفهوم معين أو استحضاره من التراث أو حقل من الحقول المعرفية. وهذا عكس ما يحدث تماما في المشهد اللساني العربي. سواء ترجمنا المصطلح من اللغة الإنجليزية أو الفرنسية إلى اللغة العربية،أو استحدثنا مصطلحا جديدا أو استوحيناه من التراث، فإن المشكلة الأساسية آتية من غياب الاشتغال على مستوى التحري الجماعي وغياب الاستعداد أيضا لقيادة حوار حقيقي حول المصطلح يدرج المتقطع في إطار المتصل .

وفي ثاني ترجمة لدروس سوسير، ظهر كتاب دروس في الألسنية العامة نقله إلى اللغة العربية مجموعة من الباحثين: صالح القرمادي، ومحمد الشاوش، ومحمد عجينة. وجاءت الترجمات على النحو الآتي:

علم الدلائل	sémiologie, sémiotique, sémiotics
دلائلي	sémiologique, sémiological

لم يذكر الباحثون مبررات استعمال وترجمة مصطلحين sémiotique و sémiotics لم يردا أصلا في الدروس، ولا الداعي إلى استعمال sémiologie(فرنسا) وsémiotics (أمريكا)بالمفهوم نفسه[126] وبمصطلح واحد علم الدلائل وهما يحيلان على الممارستين البورسية(شارل سندرس بورس) والسوسيرية المختلفتين في طريقة الاقتراب من اللغة وفي الأهداف المسطرة.

2. النصوص السيميائية المترجمة

1.2سيميولوجيا اللغة(سيزا قاسم)

من البحوث المهمة التي حاولت أن تؤصل المشروع السيميولوجي في الدرس النقدي العربي المعاصر، نذكر البحث الذي أنجزته سيزا قاسم تحت عنوان **سيميولوجيا اللغة** [127]وهو عبارة عن ترجمة نص لِ إيميل بنفنيست. ويعد من النصوص السيميولوجية التأسيسية، اتخذ بنفنيست الدلالة منطلقا لمشروعه. ولما كان الوصف لا يكفي، استدعى الأمر اللجوء إلى التفسير من خلال الإمساك بمعنى العلاقات الشكلية سواء تلك المقترنة باللسان أو الأنظمة الأخرى أو تلك الموجودة بين الأنظمة[128]: تندرج رؤية بنفنيست السيميولوجية ضمن المشروع العام للتأويل من خلال تفعيل برنامج أطلقه سوسير الذي أدمج اللغة في مجموع الأنظمة السيميولوجية.

واللافت للانتباه في هذه الترجمة، هو أنها خلت من تقديم النص الذي أقدمت على ترجمته. فجاء معلقا، مقطوعا عن السياق المعرفي العام الذي انبثق عنه. فالقارئ، وهو ينتهي من قراءة النص، يكون بكل تأكيد قد أخذ فكرة عن سيميولوجيا اللغة، ولكن ضمن أي تيار من التيارات الفكرية يدرجها. وما الداعي إلى ترجمة هذا النص دون غيره؟ وما هي الأهداف المتوخاة من اختياره؟ ومهما يكن من أمر، فإن الاختيار نفسه لنص بنفنيست يعد محاولة جادة لتأصيل المشروع السيميولوجي في الفكر النقدي العربي المعاصر وإنجازا في حد ذاته جاء، فيما يبدو، بعد ذلك الذي قدمه محمود السعران في الستينيات من القرن المنصرم.

نواصل هذا التقييم بقراءة أول ترجمة عربية في مجال السيميائيات للأستاذ خليل أحمد والباحثة أوديت بيتيت.

2.2مراهنات دراسات الدلالت اللغوية

(خليل أحمد، أوديت بيتيت)

ينبغي أن نذكر في البداية القارئ العربي بأن السيميائيات لم تكن ذائعة الصيت في تلك الحقبة مثلما هي عليه الآن. ولم نكن نسمع عنها في المؤسسات العلمية العربية، ولم تكن الظروف مهيئة للتعاطي معها، ولا المناخ النقدي العام راضيا بالتعامل مع هذا الوافد الجديد على الفكر العربي المعاصر في ظل هيمنة التيار النقدي الكلاسيكي الذي لا يملك القارئ العربي إلا أن يتحرك في أطره الضيقة.

أن تكتب في هذه المرحلة أو تترجم نصا في السيميائيات، فإن هذا يعد خروجا عن المألوف، وخرقا للنظام النقدي السائد. ومن ثم، فإن هذا النص بدا وكأنه مقطوع عن المحيط الثقافي العربي. فالمؤشرات الإيجابية التي تشجع على المضي قدما للإقبال على هذا النوع من الدراسات لم تكن ملموسة. فهذه الترجمة على غرار تلك التي وضعها الأستاذ محمد البكري من الأعمال الرائدة في حقل السيميائيات، وهي مبنية أصلا على فراغات يستحيل على القارئ أن يسدها قبل قراءة النص. ومن ضمن تلك الفراغات، نذكر غياب نصوص تؤرخ للمسار العلمي لهذا التوجه الجديد في تحليل الخطاب: أصوله، وبداياته، وإشكالياته، والمبررات المنهجية لقيامه، ورواده.

وعلى الرغم من قناعة المترجمين خليل أحمد وأوديت بيتيت بأهمية الرهانات والخدمات الجليلة التي يقدمها للقارئ العربي، وبساطته على الأقل بمقارنته مع مؤلفات گريماس وكورتيس وبعض السيميائيين المنتمين إلى مدرسة باريس، فإن هذه الترجمة الموسومة بِ **مراهنات دراسات الدلالت اللغوية**[129] وضعت في غياب استراتيجية علمية واضحة تأخذ في الحسبان الأولويات التي ينبغي أن تعقد لاختيار الدراسات السيميائية المتنوعة الكفيلة بسد الفراغات، وهذا تجنبا لكل ما من شأنه أن يعمق الهوة بين النص السيميائي ومحيطه العلمي. في ظل ظروف صعبة، ترجم الكتاب ونقلت فيه مصطلحات كثيرة وجديدة إلى اللغة العربية لا نجد لها أثرا لا في القواميس العامة ولا في المعاجم المتخصصة. وحتى القارئ الذي يدفعه الفضول إلى قراءتها، وفهمها تضرب عليه هذه القيود ، فلا يملك إلا أن يناصب لها النفور أو العداء. ويقودنا هذا الوضع المتردي إلى الاعتراف بالتضحيات الجسيمة التي بذلاها من أجل نقل كتاب آن إينو[130] Anne Hénault إلى اللغة العربية، وبصعوبة المهمة التي يجدها القارئ أيضا في استشفار النص، والتعامل مع مصطلحيته، والاضطراب الكبير الذي يلقاه في طريقة بنائه مقارنة بالنص الأصلي؛ حيث تمت هذه الترجمة بمنأى عن مشاورة صاحبة الكتاب في القضايا الجوهرية التي طرحتها في مؤلفها على الأقل فيما يتصل برأيها لما تصرفا في الكتاب وأعادا هيكلة النص هيكلة لا تتطابق مع النص الأصلي كما سنوضح ذلك أدناه. وستقودنا قراءة الكتابين إلى تقييد الملاحظات الآتية:

1. إذا دققنا النظر في عنوان الكتاب الموسوم بِ مراهنات دراسة الدلالة اللغوية les enjeux de la sémiotique، فسنلاحظ أن هذه الترجمة لا تنسجم مع المضامين الدلالية للعنوان في اللغة الأصلية، ذلك أن دراسة الدلالات اللغوية توحي بأن السيميائيات تقتصر فقط على المستوى الجملي، ولا تتعداه إلى الخطاب. ويكفي أن نعيد ترجمة العنوان لنتأكد من ذلك Etude des significations linguistiques، كما تعطي هذه الترجمة الانطباع إلى القارئ بأنها تقصي من السيميائيات الدلالات المعبر عنها بغير اللسان. وهذا يتضارب مع التعريف الذي وضع لها وحدد مجال استعمالها بتحري الدلالة وتجلياتها في الأشكال اللغوية وغير اللغوية التي تنتجها المجتمعات البشرية. وتعد هذه الأشكال الدالة ممارسات

اجتماعية بامتياز. وتتعقد الأمور أكثر لما يترجم sémiologie بِ علم الدلالات[131]، وهي ترجمة لا تراعي حتى المنطلقات السوسيرية التي مفادها أن السيميولوجيا هي علم العلامات. ومن الواضح أن أسعد علي، في تقديمه للكتاب،يأتي بترجمة مغايرة تماما لما سبق. تارة يترجم العنوان بِ المراهنات الدلالية أو مراهنات مع نظرية الدلالة[132]، وطورا آخر بمراهنات الدلالة[133]. وهو في كل هذا، لا يستقر لا على ترجمة خليل أحمد وأوديت بيتيت ولا على ترجمته. ويعكس هذا الاضطراب وضعا غير طبيعي في البحث. لقد افترضنا وجود حوار معمق بين المساهمين الثلاثة في التقديم وتتويج النص باتفاق على الأقل حول المصطلحات الأساسية. غير أن شيئا من هذا لم يحدث. ما الداعي لتقديم كتاب لا يلتزم صاحبه بالشروط الدنيا للحوار مع المترجم حول الإشكاليات الكبيرة التي يثيرها النص. وأول ما يقتضيه التقديم هو أن يكون صاحبه مطلعا على كل التفاصيل المتعلقة بالنص الفرنسي، والترجمة العربية ومصطلحيتها، وواقفا على كل خلفياتها النظرية ومراعاتها بتعميق المناقشة مع الباحثين المعنيين إذ من شأنها تضييق فجوة الاختلالات الناشئة بين النصين والتي يمكن أن تكون من الأسباب الرئيسة المفضية إلى فشل تواصل المؤلف الجماعي مع القارئ.

بالاحتكام إلى كل هذه الاعتبارات، جاء الاشتغال على النصين(التقديم والنص المترجم) بصياغة مفككة ومتقيدة بالترجمة الحرفية للمصطلح و للنص حيث أسقطت الصياغة الفرنسية على البنية العربية مما جعلها تفتقد إلى التماسك التركيبي والدلالي.

2. استبعد الباحثان في الترجمة العربية دراسة تطبيقية موسومة بـ أ.رامبو إشعاعات IIXX: "فجر" قبلت فجر الصيف[134] A. Rimbaud, Illuminations, XXII : « Aube » j'ai embrassé l'aube d'été ولم يشاور المؤلفان الباحثة آن إينو في هذه المسألة، و لم يشيرا في التقديم لا إلى المبررات المنهجية التي سوغت لهما حذف هذه الدراسة، و لا إلى الدوافع التي وقفت وراء تصرفهم في الكتاب. كما أقصى الباحثان من النسخة العربية البيبليوغرافيا، والمعجم التوضيحي، والملحق المفهومي[135].و هي ركائز أساسية تساعد القارئ على مواكبة أهم المنجزات في الحقل السيميائي، كما تعينه على فهم المضامين الدلالية للمصطلحات التي استعملتها الباحثة في دراستها. وقد عوض الباحثان كل هذا بإصدارات حديثة عن دار السؤال بدمشق لا علاقة لها بالدراسات السيميائية.

3. إن ترجمة objet بمفعول[136] غير مبررة . ينبغي أن تنسجم ترجمة هذا المصطلح مع المنظومة السيميائية التي ينتمي إليها.ثم إن objet يأتي في الغالب مقرونا بـ valeur.على هذا الأساس، فإن الأمور لا تستقيم بالحديث عن مفعول القيمة. ومن الواضح أن گريماس دقق النظر في هذه المسألة، وخصص دراسة مستفيضة لموضوع القيمة لأهميته في كل أشكال التواصل الإنساني؛ رافعا بذلك

الالتباس الذي قد يحدث في أثناء استعمال المصطلح. ولمح في بحثه إلى الاعتقاد السائد بانصهار القيمة في الموضوع لتشكل مفهوما واحدا كلما جرى الحديث في أثناء معالجة سردية عن موضوع الافتقار أو الرغبة. وإذا كان الشكل الصوري للموضوع يعد الضمانة على حقيقته وتبدو القيمة متماهية في الموضوع الذي ترغب في الاستحواذ عليه الأطراف المتصارعة في نص سردي معطى، فإن الأمور ،حتى على هذا المستوى، لا تتم بهذه البساطة. لما يرغب شخص في امتلاك سيارة، فإنه قد لا يحرص على اقتناء السيارة بوصفها موضوعا، بل لأنها تشكل بالنسبة إليه، و في المقام الأول وسيلة تضمن له التنقل السريع. فهو غالبا ما يشتري شيئا من الوجاهة أو الحظوة الاجتماعية، أو هذا الإحساس الحميمي بالقوة. وبالتالي، فإن الموضوع المستهدف ليس في الواقع إلا ذريعة، حيزا تستثمر فيه القيم ويفضي إلى توسيط العلاقة بين الفاعل و نفسه[137].

إن هذه الملاحظات لا تنقص من جهود الباحثين في نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية في ظروف لم تكن تساعد إطلاقا على التعاطي مع هذا النوع من الدراسات، ولا المناخ العلمي مناسبا لتبني مثل هذه المشاريع. من خلال هذه التأملات المتواضعة، أردنا أن نلمح فقط إلى ضرورة تقييم المشروع السيميولوجي بكل موضوعية في البحوث العربية المعاصرة بما فيه من سلبيات وإيجابيات. ولن تتحقق هذه الوثبة العلمية إلا بتظافر الجهود والامتثال لأخلاقيات البحث العلمي وقبول الاختلاف كمبدأ أساسي في الحوار.

3.2.2 السيمياء(أنطوان أبي زيد)

في نفس الحقبة التي نحن بصدد معاينة مستجداتها السيميائية، يصدر أنطوان أبي زيد كتابا عنوانه **السيمياء**[138]؛ وهو ترجمة لنص بيار غيرو الموسوم بـ La sémiologie . وأول ما يسترعي انتباهنا في هذه الترجمة إطلاق مصطلح واحد السيمياء على توجهين علمين متباينين:sémiologie (السيميولوجيا) وsémiotique (السيميائيات). وحتى نفهم خطورة هذا التوجه في الترجمة(السيمياء) الذي لا يولي أهمية لتحديد الفروق الجوهرية التي تنشأ بين المفاهيم، ولتقديم شروحات وافية للقارئ عن التوجهات الرئيسة في المشروع السيميولوجي، ولضرورة الإلمام بالسياق العام الذي حسم بيار جيرو خياراته المنهجية بخصوص ميله إلى ضبط السيميولوجيا " بالدراسة التي تتناول أنظمة العلامات غير اللغوية"[139]، يتعين علينا أن نضع هذا التعريف في سياقه التاريخي الإيبيستيمولوجي، للوقوف على أبعاده، والأهداف المتوخاة من هذا الاختيار.

ولكن ما ينبغي أن يدركه القارئ، ونحرص على تجليته الآن، هو أن تعريف بيار غيرو يأتي امتدادا، لرؤية أندريه مارتيني André Martinet المنبثقة، في الظاهر، عن الخلفية السوسيرية، والتي مفادها أن السيميولوجيا علم عام للعلامات، يعني كل أنظمة التبليغ المتميزة عن اللغات الطبيعية[140].

ويعني حصر مجالها، بهذه الطريقة، تسليم مقاليد دراسة اللغة للسانيين وحدهم، كما يعني تبني هذا الطرح، دون تقديم تنازلات، إجهاض المشروع السوسيري القاضي بتأسيس علم يدرس القواسم المشتركة بين جميع أنظمة العلامات؛ علم تنزل فيه اللسانيات منزلة القسم فقط. وفي الجهة المقابلة لهذه التصور، وبالاحتكام إلى الأسس التي شيدت عليها الرؤية البارثية قطيعتها الإبيستيمولوجية مع الرؤية السوسيرية للمشروع السيميولوجي، يعلن بارث عن رغبته في وضع أسس أوسع لسيميولوجيا الدلالة التي لا تقصي القرائن من اهتماماتها بحيث تكون أوسع من تلك التي صممها إيريك بوسنس Eric Buyssens لما حدد السيميولوجيا بالتبليغ[141]. وإذا أضفنا إلى هذا المحددات المتباينة في تحديد طبيعة المشروع السيميولوجي، وألمحنا، دون أن ندخل في تفاصيل كل تيار، إلى سيميائيات شارل سندرس بورس Charles S. Peirce [142] وسيميائيات مدرسة باريس[143] المختلفتين، نكون قد بينا أن استعمال مصطلح واحد السيمياء للدلالة على حقول معرفية متباينة (في صلب المشروعين السيميولوجي والسيميائي) ، لا يثير الالتباس فحسب، بل سيدخل القارئ العربي المقبل على هذه المعرفة السيميولوجية الناشئة في فوضى مفهومية قد تجهض المشروع في انطلاقته.

وعلى غرار الترجمة السابقة لأمينة رشيد، فإن أنطوان أبي زيد لم يحفل تماما بالقارئ: الشريك الأساسي في العملية التواصلية المنغمس في خضم التحولات التي عرفتها الحقبة التأسيسية للمشروع السيميولوجي في الدراسات العربية. وجد القارئ نفسه، دون سابق إنذار، وجها لوجه أمام مصطلحات عديدة نكتفي بذكر بعضها السيمياء، السيميولوجيا، مبادئ في علم الأدلة، السيميوطيقا(انظر الجدول أدناه)، ولكل واحد منها مرجعية خاصة تحيل، من جهة، على تيارات متنوعة في اللسانيات، وتحليل الخطاب، ومختلف أنظمة العلامات، ومن جهة أخرى على حراك علمي لم نشهد له مثيلا في المشهد العلمي الأوروبي لا سيما في الحقبة الممتدة من الستينيات ، حيث كانت المناقشات محتدمة حول بناء إشكالية الدلالة، وتحديد المقاربات المنهجية الكفيلة بمعالجتها في مختلف الحقول المعرفية، وتأسيس هيئات ومجلات علمية تعبر عن انشغالاتها، مرورا بالسبعينيات التي تميزت بإصدارات غزيرة حول السيميولوجيا والسيميائيات وتفرعات علمية أخرى، ووصولا إلى الثمانينيات التي شهدت تحولات جذرية لا سيما في الحلقات التي كان ينظمها أ.ج.گريماس ومجموعة كبيرة من الباحثين القادمين من مختلف مناطق العالم. فالقارئ الأوروبي الذي يتوجه إليه بيار غيرو بخطابه يعيش في خضم التحولات العلمية والتكنولوجية وتتشكل رؤيته بشكل مواز مع ما يحدث. أما القارئ العربي، وفي ظل وسط رافض لهذا النوع من الدراسات، ومشكك في شرعيتها، وغياب منظومة علمية تتكفل بهذه المعرفة السيميولوجية الناشئة، فمقطوع تماما عما يجري في الضفة الأخرى، لا يملك من الاختيارات إلا ما يفرض عليه فرضا من الكتب المترجمة التي لا يبذل أصحابها أقل جهد ممكن لترتيب شأنهم العلمي بالحديث عن الخيارات العلمية والأولويات التي ينبغي أن تعقد لهذا التيار أو ذاك. نستثني منها مقدمة

محمد البكري الذي توجه بها مباشرة إلى القارئ العربي واضعا تحت تصرفه الأدوات المنهجية الكفيلة بتجلية واقع البحث السيميولوجي في أوروبا ومختلف النصوص التي مهدت لظهوره.